

الحجاج وآليات الإقناع بين الدرس التراثي والمعطى الحديث

ARGUMENTATION AND THE MECHANISMS OF PERSUASION BETWEEN THE LESSON OF HERITAGE AND THE MODERNIST

الدكتور: بلخير ارفيس Dr. Belkheir REFICE

جامعة المسيلة University of M'SILA

refibel2@yhoo.fr

Accepted:	2019/04/29	قبل للنشر:	Received:	2019/03/13	استلم:
-----------	------------	------------	-----------	------------	--------

ملخص:

يحاول هذا المقال البحث في اثنين من أهم مفاهيم الدرس اللساني الحديث، ويتعلق الأمر بمفهوم الحجاج والإقناع؛ كونهما من أهم منجزات الدراسات التداولية. وطبيعة هذا المقال هي الدراسة المقارنة بين المفاهيم التي أبدعتها التداولية من جهة، وبين ما تركه الدرس اللغوي العربي القديم من جهة أخرى؛ فالعملية التواصلية وأغراض المتكلم أهم شيء تعرض له الباحثون في جميع الأمم، وفي كل الأزمان والأوقات، بل وبحوثا في الطرق الكفيلة المفضية إلى نجاح المنجز اللفظي والتأثير في المتلقي، بغض النظر عن طبيعة ذلك التأثير ودرجته. وبعد الدراسة والمقارنة توصل المقال إلى أن ما يطرحه الدرس اللغوي الحديث من مقاربات حجاجية لتجد أثرها المباشر في كل ما طرحه الدرس التراثي من مفاهيم، وما تنبأه من آليات، والفرق الوحيد هو عملية التنظير والتفكير.

الكلمات المفتاحية: الحجاج؛ الإقناع؛ التداولية؛ الدرس اللغوي الحديث.

Abstract:

This article attempts to examine two of the most important concepts of the modern linguistic lesson, and it is about the concepts of argumentation and persuasion, as they are the most important achievements of pragmatic studies

The nature of this article is the comparative study between the concepts created by pragmatics on the one hand, and the heritage of the old Arabic linguistic lesson on the other hand.

The communicative process and the speakers intentions are the most important things that researchers in all nations, and at all times, have even looked at in ways that lead to the success of the achievement Verbal and affect the recipient, regardless of the nature and degree of that effect.

The study and comparison of this article concludes that what the modern linguistic lesson suggests from the approaches of the argumentation find their direct impact in all what the lesson of the heritage concepts, and adopted mechanisms, and the only difference is the process of theorisation and regulation.

Keywords: argumentation; persuasion; pragmatics; linguistics.



مقدمة:

إن مقارنة التراثي الراكد بالحدائ الوافد ليس نابعا من ترف فكري أو من انبهار معرفي بما أحدثته الحدائة وما أنجزته تيارات مابعد الحدائة، ولكن كل ما في الأمر هو محاولة استقصاء تلك الأفكار من جهة واستنطاق التراث حول علاقته بها من جهة أخرى.

إن تراكمية العلم هي التي ضمنت ديمومته، وأبرزت تطوره، فالمفاهيم الحدائية لم تكن مفصولة عن المنجزات القبلية، سواء أكانت تلك المنجزات مما أدركه العقل أو العكس، والمشكل ليس في عدم وجود الشيء وغيابه بقدر ماهو منصب على عدم معرفته أو تجاهله ونسيانه.

يعد مفهوم الحجاج من أهم المفاهيم التي أفرزتها الدراسات اللغوية في موجتها الثالثة، فبعد قصور الدال، وعدم كفاءة المدلول، برز التداول ليلقي بظلاله على الطبيعة اللغوية، ويؤسس لمفاهيم أغراض المتكلم لتكون هي مناط البحث وأساس التنقيب.

وأما الإقناع فلا يعدو إلا أن يكون الواجهة الثانية لمفاهيم الحجاج، فهو الأساس الذي لأجله يبنى، والهدف الذي إليه يسعى.

ومن هذا المنطلق فإننا سنحاول البحث في بعض المفاهيم الحجاجية وفق التصور الغربي، محاولين رصد ما يقابلها من مفاهيم تراثية، لتبين أهم نقاط التشابه بينهما من جهة، ولنؤكد حرص اللغويين الأوائل في تأسيسهم لعمليات التخاطب على كل ما يؤدي بالمنجز اللفظي إلى تأدية غرضه وتحقيق هدفه.

وتأسيسا على هذا فستكون محاور هذا المقال كالاتي:

المبحث الأول: الحجاج والإقناع: قراءة في المفاهيم والاصطلاحات

المبحث الثاني: الحجاج: قراءة في الأصول والامتداد

المبحث الثالث: الإقناع بين وحدة التشكيل وأسس التفصيل



المبحث الأول: الحجاج والإقناع: قراءة في المفاهيم والاصطلاحات

أ- الحجاج:

1- عند العرب:

لغة: الحجاج والحاجة مصدران لفعل حاجج، جاء في لسان العرب: حجج: الحج: القصد. وحجّه يحجه حجا: قصده. والحجة: البرهان، وقيل: الحجة مادفع به⁽¹⁾. ويقال حاجه حاجة وحجاجا أي نازعته. وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته⁽²⁾.

وقد ورد لفظ «الحجة» في القرآن الكريم، في أكثر من موضع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ، وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾⁽⁴⁾

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة حجج.. دار المعارف، القاهرة، د.ت. ج 2/ 778

(2) أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1419. 1998، ص406.

(3) سورة البقرة 150

(4) سورة الشورى 16.15

كما ورد لفظ الحجة أو ما شتق منه في الحديث النبوي الشريف، ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْبِقُوا بِقُرَّةِ وَسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»⁽¹⁾

وعادة ما يقترن مفهوم الحجة بالبرهان سواء أكان ذلك في القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية. ففي القرآن الكريم نجد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾⁽²⁾ وقوله أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽⁴⁾

وأما في الحديث النبوي الشريف فنجد ما روي عن أبي مالك الحارث بن الأشعري رضي الله عنه حين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقَتُهَا أَوْ مُؤَيَّقَتُهَا»⁽⁵⁾ فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصدقة برهان»: معناه أنه يفزع إليها كما يفزع للبراهين، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت له صدقاته براهين في جواب هذا السؤال فيقول:

(1) رواه مسلم 408

(2) سورة المؤمنون 117

(3) سورة النساء 174

(4) سورة البقرة 111

(5) رواه مسلم 333

تصدقت به وقيل: معناه أن الصدقة حجة على إيمان فاعلها لأن المناق يمتنع منها لكونه لا يعتقددها فمن تصدق استدل بصدقته على قوة إيمانه.

ومن هنا نجد أن المراد من الحجاج في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف هو الحوار الذي يهدف إلى الإلباغ والإقناع باستخدام الأدلة بمختلف أنواعها وفروعها سواء أكانت عقلية أم علمية أم لغوية وغيرها، أو باستخدام الآيات الكونية في الآفاق والأنفس إثباتا لحقيقة هذا الدين.

أما في التراث العربي فلم نستطع إلى حد الآن إيجاد تعريف للحجاج يتوافق مع ما أحدثته التداولية الحديثة، وإنما كل ما تم العثور عليه مجموعة من الآليات التطبيقية استعملها الخطباء في إقناع متلقيهم، وقام الجاحظ بالتنظير لها خاصة في كتابه البيان والتبيين، ومن ذلك ما ذكره في فصل في الجوابات يقول فيه: ثم إني واصل قولي في المعرفة ومحجب خصمي في معنى الاستطاعة وفي أي أوجهها يحسن التكليف وتثبت الحجة؛ ومع أيها يسمح التكليف وتسقط الحجة.

فأول ما أقول في ذلك: أن الله - جل ذكره - لا يكلف أحداً فعل شيء ولا تركه إلا وهو مقطوع العذر، زائل الحجة.⁽¹⁾

2- في الدرس اللغوي الحديث

لغة: يشير لفظ «Argue» في الإنجليزية إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كلٍّ منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، بتقديم الأسباب أو العلل «Reasons» التي تكون الحجة «Argument»، مع أو ضد فكرة أو رأي أو سلوك ما⁽²⁾

أما في اللغة الفرنسية فتشير كلمة «Argumentation» إلى: القيام باستعمال حجة أ، مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.⁽¹⁾

(1) الرسائل، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة (1964، 1384) ص1126

(2) Longman, Dictionary of contemporary English, longman 1989.

اصطلاحاً:

لقد وردت العديد من التعريفات التي حاولت جاهدة توضيح ماهيته، وتحديد آلياته واستخلاص وظائفه، ولا تختلف تلك التعريفات إلا في درجة النظر للموضوع قيد الدراسة ومن أبسط تلك التعاريف مثلاً:

«الحجاج إجراء يستهدف من خلاله شخص ما حمل مخاطبه على تبني موقف معين عبر اللجوء إلى حجج تستهدف إبراز صحة هذا الموقف أو صحة أسسه، فهو إذن عملية هدفها إقناع الآخر والتأثير عليه، ووسيلتها الحجج»⁽²⁾. «ولا يكون الحجاج جيداً إلا إذا نجح في تحقيق هدفه هذا»⁽³⁾

ولهذا نجد أن كريستيان بلانتان Cristianne Plantene يعتبر المحاججة ممارسة فكرية إذ «للمحاججة وجه معرفي، أن تحاجج يعني أن تمارس فكراً صائباً، وبواسطة الإجراء التحليلي والإتلافي نبني مادة ثم نطرح قضية للنقد، إننا نفكر و نفسير و نبرهن بواسطة الحجج و العلل و الدلائل. كما نقدم الدوافع و بهذا تكون خلاصة المحاججة اكتشافاً، حيث تنتج إبداعاً أو لا شيء أقل من المعرفة»⁽⁴⁾.

(1) Petit Robert, Dictionnaire de la langue Française, 1er redaction, Paris, 1990, p: 99.

(2) أبو الزهراء، دروس الحجاج الفلسفي، مكتبة الخانجي، القاهرة 2003 ص5

(3) ليونيل بلنجر، عدة الأدوات الإجرائية تر: قوتال فضيلة. ص121

(4) - كريستيان بلانتان: لغة المحاججة و اللغة الواصفة، ترجمة نصيرة الغماري، ص 02.

وأما الحجاج عند بلنجر فيقوم على «سلسلة من الحجج المترابطة، وأحيانا على زخم من الحجج المتواكبة يغيب معها المنهج البين، وتروم جميعها استمالة الآخر للقبول، بل الاعتقاد بصواب ما يذهب إليه الحجاج ونفعيته، وذلك على خلاف ما يراه خصمه»⁽¹⁾.

وهو ما يذهب إليه طه عبد الرحمان حين يعتبر الخطاب الحجاجي «كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»⁽²⁾.

ولهذا فإن أساس الخطاب الحجاجي هو الإقناع عبر تقنيات معلومة، سواء كانت لغوية أو غير لغوية تستهدف متلقيا معروفا أو متوقعا.

ويؤرخ بعض الباحثين للدراسات الحجاجية بالرجوع إلى بريلمان و تيتيكاه، حيث تطلق كلمة argumentation على العلم و موضوعه، ومؤداها درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم، وربما كانت وظيفته محاولة جعل العقل يذعن لما يطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان فيبعث على العمل المطلوب. وهو ما سنتناوله بقليل من الشرح في البحث الموالي.

ب-الإقناع

لغة: لا تتفق المعاجم العربية والغربية على مفهوم موحد للإقناع، وهو ما يضطرنا لتفصيل ذلك. فالمعاجم العربية تتفق على أن للإقناع معنيين:

الأول: السؤال والتذلل⁽³⁾ فيقال (قنع) بفتح النون فلان قنوعا، أي سأل الناس الإحسان راضيا بالقليل⁽⁴⁾

(1) Jean elaner dans technique et pratique de l'argumentation (voir argumentation Reneé et Jean sumanet p 19. les editeurs d'organisation paris 1990

(2) طه عبد الرحمان: اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص 226

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة قنع 256/4

(4) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة. طبعة 1993 ص231

والثاني: الرضى فيقال (قنع) بكسر النون قنعا وقناعة رضى بما أعطي⁽¹⁾ وقنع بنفسه قنعا. وقناعة: رضى، وأقنعي أي أَرْضَانِي، وقنعي أي رَضَانِي⁽²⁾ فالدلالة المعنوية لكلمة إقناع عند أهل اللغة عموما هي رضا النفس⁽³⁾ وأما في المعاجم الغربية فإننا نجد المفردات الآتية:

Persuader وكلمة convaincre حيث تعنيان أقنع وأفحم.

وقد أورد كل من جيمس سبيكمان وكيفن هوقان العديد من الدلالات للفعل persuade فيوردان مايلي:⁽⁴⁾

- أقنع يعني دعوة شخص معين لفعل شيء ما باستعمال وسائل الحجاج، والبراهين أو التوسلات

- استمالة شخص ما

- جعل شخص ما يعتقد بشيء ما يقتنع به

اصطلاحا:

في الثقافة العربية: يعرفه حازم القرطاجني بقوله: «هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده»⁽⁵⁾

(1) ن م، ن ص

(2) ابن منظور، لسان العرب 4/257

(3) انظر، الطاهر بن عيسى، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، دار الضياء، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1427 هـ / 2006 م. ص 20

(4) KEVIN HOGAN, JAMES SPEAKMAN: covert persuasion. Published by John Wiley & Sons, Inc., Hoboken, New Jersey. 2006. P3.

(5) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء: محمد الحبيب، بلخوجة. دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية، 1981 م. ص 20

أما الخوارزمي فيعرفه بقوله: «ومعنى الإقناع أن يعقل نفس السامع الشيء بقول يصدق به، وإن لم يكن ببرهان»⁽¹⁾

والملاحظ على التعريفين السابقين نزوعهما إلى الفلسفة أكثر من البلاغة، ولا غرو في ذلك فسمات عصرهما التفلسف، أما الإقناع فقد ربطه الجاحظ في خضم حديثه عن بلاغة الكلام وذلك حين يقول: «إذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، وكان منزلها عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة»⁽²⁾

ويزداد هذا الأمر وضوحاً عند الحاتمي حيث يقول: «فإذا كان اللفظ فصيحاً، والمعنى صريحاً، واللسان بالبيان مطرداً، والصواب مجيداً.... والمعاني والحجج عند الحاجة ماثلة... فتلك هي البلاغة»⁽³⁾ وأما في الثقافة الغربية فهناك العديد من التعاريف نذكر منها:

يعرفه هنريش بليث بقوله: «قصد المتحدث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي عند المتلقي»⁽⁴⁾

ويعرف أيضاً بأنه: «حمل الإنسان على اعتقاد رأي للعمل به»⁽⁵⁾ وفي تعريف آخر يعرف الإقناع بأنه العملية التي بها يؤثر الخطاب في مواقف الإنسان وسلوكه بدون إكراه أو قسر.⁽⁶⁾

وهذا التعريف الأخير يتقارب كثيراً مع المفهوم القرآني، إذ يقول تعالى: وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ⁽¹⁾، ويقول: لَأِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ⁽²⁾

(1) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الأبياريدار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1409 هـ / 1989 م. ص 177

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1 ص 383

(3) الحاتمي، حلية المخاضرة 123/1

(4) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تلم: محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب. الطبعة الثانية، 1999 م. ص 102

(5) بن عيسى الطاهر، أساليب الإقناع في القرآن الكريم ص 21

(6) نفسه 21

ومن هنا يتبادر لنا التساؤل حول طبيعة العلاقة بين الحجاج والإقناع خصوصا بعد أن عرف الحجاج بأنه فن الإقناع عند بعضهم.

ومن خلال نظرة بسيطة يمكننا الوقوف عند أهم الفروقات بين المفهومين من خلال الجدول الآتي

الحجاج	الإقناع
مسار حوارى يستخدم أحكام القيمة	فن الإيعاز والمناورة
هدفه الإقناع بوسائل عقلية	هدفه الإقناع حتى بالوسائل غير العقلية
برهنة موجهة إلى طرف ما، وهي ليست ملزمة	صورة صانع الإقناع لها دور أساسي
جمهور خاص لكن يقصد من خلاله جمهور كوني	جمهور خاص، جمهور مستهدف
كل نص حجاجي إقناعي بالضرورة	كل نص إقناعي ليس حجاجيا بالضرورة
ليس كل تواصل يهدف إلى الحجاج	كل تواصل يهدف إلى الإقناع

المبحث الثاني: الحجاج قراءة في الأصول والامتداد

لقد أطلق بيرلمان على نظريته الحجاجية اسم البلاغة الجديدة، وكان طامحا في إعادة تأصيل، وطامعا في إعادة بناء وتفصيل، ولهذا فإن البلاغة التي أسسها بيرلمان بلاغة حجاج أكثر منها شيء آخر؛

(1) سورة النحل 125

(2) سورة البقرة 256

فهي تهدف إلى دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز هذا التأييد.

ويرى بيرلمان أن بلاغته تتجاوز البلاغة القديمة التي اعتبرت فن الكلام المقنع للجمهور أساساً لها، واقتصرت على التكلم بإلقاء الخطب في الميادين العامة أمام الحشود من الناس قصد الحصول على تأييدهم، وإن كان هذا هو أساس الحاجة البرهانية فليس من الواجب حصره على العرض الشفوي للبراهين من جهة ولا أن يحددها في الجماهير المحتشدة في الميادين، ومن هنا فقد أعطى بعدين للظاهرة البلاغية:

الأول: تجاوز الجانب الشفوي إلى الجانب الكتابي

الثاني: تجاوز الجماهير إلى المتلقين.

والضامن الوحيد لذلك هو الدور الحديث الذي تلعبه الطباعة من جهة، واهتمام علوم أخرى بطرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة، وهي وظيفة معاهد الفنون الدرامية ومدارس الإلقاء والتمثيل. ومن هنا يعتبر بيرلمان أن أفضل الخطب ليست بالضرورة هي التي تقنع المفكرين، بل في طبيعة الحجج التي تم وضعها، ومن هنا، فإنه ينبغي دراسة الحجج البرهانية بطريقة عقلية، والكشف عن أبنيتها «لأنها تتوجه إلى قراء لا يخضعون للإيحاءات والضغط والمصالح والأهواء، وعندئذ يتضح لنا أن هذه التقنيات البرهانية تبدو على كل المستويات، سواء أكان الأمر يتعلق بنقاش عائلي أم بحوار جدلي في وسط مهني متخصص، أو بمحاجة أيديولوجية، وإذا كانت نوعية المستمعين الذين يؤيدون بعض البراهين في مجالات التخصص الدقيق هي ضمان قيمتها؛ فإن أبنية البراهين المستخدمة في المناقشات اليومية هي التي تجعلنا ندرك سبب وكيفية فهمها»⁽¹⁾

وأساس هذه البلاغة المنطق وليس التجريب؛ أي أنها لا تعتمد على دراسة الحجج بتجريبها على عدد من المتلقين ذلك أن هذا الإجراء هو شأن بعض اتجاهات علم النفس، ويصرح بيرلمان أنه يستلهم

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص ص 69

عمل المناطق ويعتمد على مناهجهم وفي هذا يقول «المنطق قد استطاع أن يظفر بدفعة قوية منذ منتصف القرن الماضي عندما كف عن تكرار الأشكال القديمة وأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل، فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسس باعتباره دراسة وسائل البرهان الرياضي، لكن مجاله ظل محدودا مما يدفع المناطق إلى استكمالها بنظرية برهانية وهذا ما تهدف إلى وصفه عبر تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية»⁽¹⁾

كما تقوم نظريته على محاربة الاتجاه الذي يفصل الشكل بالمضمون لاعتبار أن البلاغة هي فن الكلام والكناية الجيدين فيرى «أنه ينبغي أن نشور على هذا التصور الذي يعد السبب في تدهور البلاغة وعقمها واحتفاءها بالجانب اللفظي، مما جعلها جديرة بالإهمال في نهاية الأمر، ولا يتأتى ذلك إلا برفض أي نوع من الفصل في الخطاب بين الشكل والمضمون، وعدم دراسة الأشكال والأبنية والأشكال الأسلوبية بمعزل عن الهدف الذي ينبغي أن تؤديه في عمليات البرهان»⁽²⁾

كما يميز بيرلمان بين البلاغة كإجراء طبيعي أو مفتعل على أساس أن الإجراء هو طريقة العمل من أجل الوصول إلى نتيجة محددة، وأهميته تكمن في طبيعته وهو بهذا يحتز من الإجراء المفتعل مثل الدموع الكاذبة لاستدراار العطف، أو المجاملة المسرفة بغرض النفاق، وهو في هذا يخشى على البلاغة في جميع صورها في أن تسقط في هذا المصير مما يهدد مصداقيتها وقيمتها البرهانية، وبهذا تجدنا كما يقول بيرلمان حيال هذه المجموعة من الثنائيات:

طبيعي	مضمون	واقع
مصطنع	شكل	لفظ

(1) نفسه، ص 70

(2) نن م، ن ص

ويرى بيرلمان أن تفادي إثارة الانفصال بين الشكل والمضمون لا يتم إلا عن طريق ملاءمة الأسلوب للموضوع.

ومن هنا فإن هذا الاتجاه يحاول التخفيف من حدة الغلو في التحليلات الشكلية ليشير إلى ضرورة الاهتمام بالوظيفة على الأمد البعيد في الخطاب برمته، ذلك أن الإسراف في درجة كثافتها الكمية يؤدي إلى إهدار فعاليتها الوظيفية، كما حدث في البلاغة العربية أين تحولت الأشكال البلاغية إلى غاية في حد ذاتها.

ومن أهم ما قدمه بيرلمان للبلاغة هو تحليله لعمليات القياس *analogie* ودورها في الأبنية البرهانية حيث انتهى إلى نتيجة مفادها «أن القياس نقل للبنية والقيمة معا على أساس أن التفاعل الذي ينجم عن الربط بين المقيس والمقيس عليه وإن كان يؤثر بشكل أوضح على المقيس فإنه يؤثر أيضا على المقيس عليه، هذا التأثير يتجلى بطريقتين: من خلال البنية وعبر انتقال القيمة المترتبة عليها، وبهذا فإن الأقيسة تلعب دورا هاما في عملية الابتكار وعمليات البرهان معا خاصة لما يتبعها من نمو وامتداد، فانطلاقا من المقيس عليه أي من المشبه به أو المستعار يؤدي القياس إلى بلورة بنية المقيس أي المشبه أو المستعار له ووضعه في إطار تصوري خاطئ»⁽¹⁾

كما يربط بيرلمان الأبنية النحوية بمحالات المجتمع وحركيته، ويشير في هذا الصدد إلى أن بعض البحوث اللغوية قد أوضحت مناسبة أبنية معينة للمجتمعات التي تقوم على المساواة والمبادرة الفردية، وأخرى للمجتمعات المؤسسة على النظم الشمولية، فقد قام الباحث الألماني هينزباتشر مثلا بدراسة الألمانية وأبنيتها في المجتمع النازي مقارنة بغيرها، وانتهى إلى أن الأشكال النحوية في مجتمعات المساواة تركز على المحمولات والتقييمات التي يقوم بها الفاعلون، بينما نجد لغة المجتمعات الشمولية تعتمد على

(1) نفسه ص73

الحث والتحريض، وقواعدها ونحوها لها طابع سحري مقدس.... وبينما نجد اللغة في المجتمعات الديمقراطية ملكا لكل الناس يتطور بجرية تامة، بحيث تكتسب التعبيرات والصيغ طابعا شعائريا⁽¹⁾ وما يلاحظ على طرح بيرلمان أنه يضرب بجذوره في أعماق البلاغة الأرسطية التي عرفت بأنها فن الإقناع عن طريق الخطاب، غير أن بيرلمان وإن اعتمد البلاغة الأرسطية، غير أنه حورها وفق ما يقتضيه بحثه، وفي هذا يقول «إن نظرية للحجاج من هذا القبيل توجه الذهن، حين النظر إلى موضوعها، إلى البلاغة القديمة، ولكنني إذ أعالجها من زاوية هموم عالم المنطق، سأضطر لتقليص مباحثي من جانب وتوسيعا من جانب آخر⁽²⁾» وبغض النظر عن المجالات التي قام بيرلمان بتوسيعها أو تضيقها؛ فإن ما يهمنا في هذا المقام ما كان له علاقة بفن الإقناع والاقناع، ويمكننا أن نستفيد من هذا الجانب ومقارنته مع موروثنا البلاغي القديم.

فالملاحظ أن هذا الطرح يقترب كثيرا من بيانية الجاحظ، الذي ينظر إلى الكلم من خلال الوظيفة التي يؤديها، وهي القدرة على «إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق» حسب تعبير العتابي كما نقله الجاحظ⁽³⁾ وهذا إنما يكون بالقول الفصل أو ب«فصل الخطاب» وهو نوع من القول تجتمع فيه الصنعة اللفظية والحجة المقنعة، مع عدم الإثقال على السامع، يقول الجاحظ عن عمرو بن عبيد أحد أقطاب المعتزلة «إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتحقيق المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحبة في الأذان المقبولة على الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد

(1) نفسه ص 74

(2) Perelman, Le champs de l'argumentation

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج 1 ص 113

أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب⁽¹⁾ وفصل الخطاب بمعنى القول الفاصل المقنع المفحم.

وإذا حاولنا فحص هذه الأفكار وتمحيصها قصد البحث عن إمكانية مقاربتها بمنظور البلاغة العربية فإننا نجد ما يلي:

إن اعتماد هذه النظرية على الحجة، وجعلها موضوع الدراسة، وممكن الفرق بين فنون القول، ومدى تأثيرها على المتلقين قد كان أحد إفرازات البلاغة الأرسطية المبنية أساسا على الإقناع، بغض النظر عن طبيعة الآلية المفضية إليه، ولهذا فإن بيرلمان قد اتجه ببلاغته إلى الخطاب الذي يعرف بأنه كلام تم تثبيته بواسطة الكتابة

وبذلك فهو يتعد عن المستمعين وشروط حضورهم إلى المتلقين وحدود تلقيهم.

كما أن أساس المفاضلة بين الخطب لا يكمن في حججها، بل في طبيعة الحجج ومدى مواءمتها لنوعية المتلقين. وهذا أيضا يمكن الإفادة منه في مقاربتنا لهذه الأفكار بالموروث التراثي. كما أن الجانب المنطقي والعقلي لبيرلمان يفرض علينا اعتماد كونه يمثل ركيزة قامت عليها البلاغة العربية في أوج تطورها، وخصوصا وأن هذه الأخير قد بنيت على الجانبين، العقلي والمنطقي في مراحل متفاوتة.

أضف إلى هذا، فإن عدم فصل هذه الفلسفة بين الشكل والمضمون وعدم دراسة الأبنية والأشكال الأسلوبية بمعزل عن الهدف لحري بنا أن نشيد به، بل وأن نعمل إليه ونعتمد عليه فلا نفصل مباحث البلاغة على الغاية الكبرى وهي البيان والتبيين على حد تعبير الجاحظ.

كما أن تنبيهه لأن لا تكون الأشكال غاية في ذاتها قد يثير قضية ضاربة بعمقها في التراث البلاغي عند العرب وهي قضية اللفظ والمعنى، والشكل والمضمون، والطبع والصنعة، وإن الاقتراح الذي قدمه لتجاوز هذه الثنائيات والمبني أساسا على ضرورة ملائمة الأسلوب للموضوع، ليعد أحد

(1) نفسه ج1 ص114

أعمدة الدرس البلاغي، والقاضي بضرورة تواءم المقام والمقال، ولهذا نجد الأساليب تتعدد لتعدد المواقف، وإذا كانت طبيعة الحجاج متعددة فإن اعتمادها على أنظمة القياس واحد، خصوصاً وأنه نقل للبنية والقيمة معا فهو يرى بأنها نقل للبنية والقيمة، وهو ما يمكننا لمحه في دراسات صور التشبيه والاستعارة وغيرها من فروع المجاز.

ثم إن أهم ما نلاحظه هو ربطه للأبنية النحوية بمجالات المجتمع وحركيته، وهذا الأمر هو ما قامت البلاغة العربية على توضيح أمره وتبيان قدره، فالأبنية النحوية ووظائفها كانت من صميم أبحاث الدارسين العرب، بل ومن جنس ما برعوا فيه.

المبحث الثالث: الإقناع بين وحدة التشكيل وأسس التفصيل

المقصود بآليات الإقناع هو مجموعة الطرق الكفيلة بتحقيق غاية التواصل في حد ذاتها، إذ تكون العمالية الإقناعية مبنية على التأييد أو التفنيد أو التغيير أو غيرها من الوضعيات السيكلوجية

ويكاد يتفق الباحثون على خصائص مشتركة ينبغي أن تشتمل عليها أي عملية إقناعية وهي: ⁽¹⁾
-خلو الخطاب الإقناعي من المغالطات الوصفية.

-بناء الحجاج على سلمية متدرجة، تراعي سياق التخاطب.

-إحالة الخطاب الإقناعي على مرجعية ثقافية سائدة ومشاركة بين المتخاطبين

-وضوح الأهداف، وإمكان الوصول إليها.

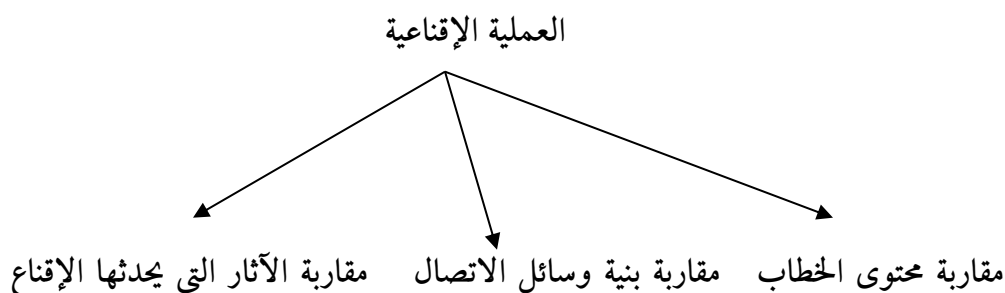
-الجمع بين الرأي والرأي المضاد.

-تنويع عرض الخطاب الإقناعي مع مراعاة التباعد الزمني في عملية العرض.

-تحديد معاني المفردات المستعملة

(1) نايف خرما أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد التاسع،

وإذ كان هناك اتفاق حول الخصائص العامة لأي عملية إقناعية، فإن الاختلاف يكمن في كيفية تحليل العملية الإقناعية ولهذا ظهرت ثلاث مقاربات نوردها في المخطط الآتي:



فأما الأولى فتحدّد طبيعة الخطاب وخصائصه وأنماط الحجاج أو الحاجة.

وأما الثانية، فهي مقارنة سياسية وسوسولوجية يطرح فيها سؤالان:

أ- يتعلق الأول بمن يتحكّم في الخبر.

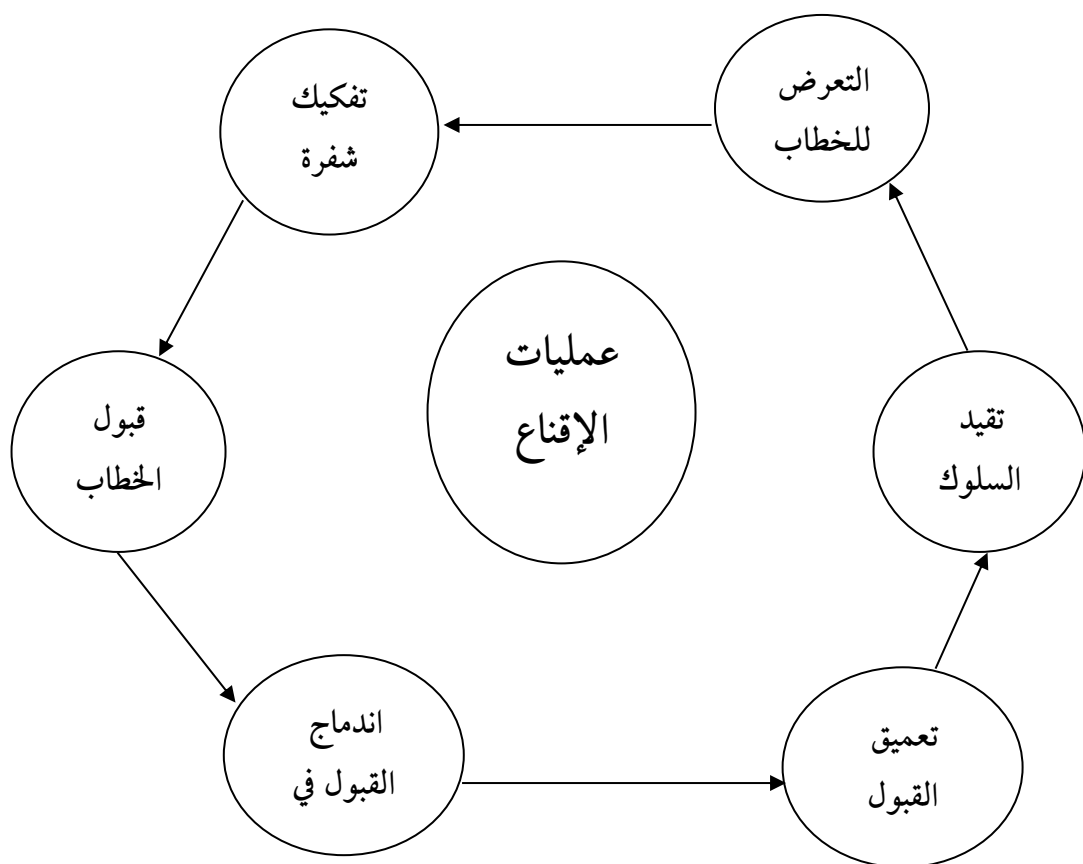
ب- ويتعلّق الآخر بمن يوجّه الخبر.

وأما المقاربة الأخيرة، فيتم فيها تحليل النماذج الخاصة بتغيّر المواقف وتشكّل الآراء وانعكاسها في السلوك.

وقد حاول بعض الباحثين في تأليفهم تطوير الدراسات التجريبية لتحليل ظاهرة الإقناع؛ حيث يرى كابفيرر أن فهمها يكون بمعرفة طريقة تغيّر المواقف والسلوكيات لدى الإنسان إثر دخول الرسالة إلى حقلها البسيكولوجي. أي قبوله الخبر بصورة داخل - نفسية من لدن الجهة المستقبلة في عملية التواصل، أي جمهور المتلقين.

ويعتبر كابفيرر أن الإقناع عبارة عن كلّ مكوّن من متتالية تشمل ست عمليات رئيسية نجملها في المخطط الآتي:





تهدف هذه العناصر الستة إلى تحقيق الإقناع لدى المتلقين وفق: الترتيب الآتي:

- لكي يتم التعرض للرسالة أو للخطاب يطرح السؤال: لماذا نتعرض للرسالة أو الخطاب ؟

وكيف نتعرض له ؟

- تفكيك شفرة الخطاب: ويتم بواسطة متتالية العمليات التوجيهية والتحويلية من أجل إثارة

حواس المتلقين للخطاب بإعطاء صور وكلمات ومفاهيم مستقاة منه.

- قبول الرسالة التصديق: وي طرح في هذه المرحلة سؤالان:

- كيف يتم إعداد مسلسل قبول القصد الإقناعي للرسالة أو رفضه ؟

- كيف يتم المرور من الفهم إلى الاقتناع ؟

ويطرح السؤال الآتي: كيف يتم اندماج القبول في الموقف الشخصي لمتلقي الخطاب، أي ما هي المعالجات البسيكولوجية التي تسمح للمتلقين بالمرور من مسلسل القبول إلى تكوين موقف جديد؟

وكيف يتم تعميق القبول والحفاظ عليه ؟ أي كيف تتطور المواقف في الزمن ؟ وهل تتمتع التغيرات بما يكفي من أسباب المقاومة؟
وأخيرا كيف يتقيد السلوك الشخصي لمتلقي الخطاب بالقبول .كيف يترجم تغيير الموقف إلى تغيير السلوك؟

خاتمة:

من خلال كل ما تم ذكره نستنتج ما يلي:
-لقد تفرد الدرس التراثي عموما والبلاغي خصوصا في امتلاكه وسائل الإقناع وآلياته، وذلك باتساعه لكل الأدوات المعرفية والمنهجية مهما كان مصدرها-ومنها المقاربة الحجاجية- لكونه خطابا يتسم بسمتين: التفاعلية والتواصلية.
-إن المنهج الذي اعتمده الدرس التراثي في الإقناع يساعد في تحرير العقل ويجعله يتطّلع إلى التواصل مع الآخر. فما يوظفه من آليات في الإقناع تسهم بشكل فعال في تيسير القبول لدى المتلقين -تميزت آليات الإقناع في الدرس التراثي بالتنوع والتعدد، فأما التنوع ففرضته طبيعة المتلقين، وأما التعدد فأملتة صفة الاختلاف بين الباحثين والدارسين.
- إن ما يطرحه الدرس اللغوي الحديث من مقاربات حجاجية لتجد أثرها المباشر في كل ما طرحه الدرس التراثي من مفاهيم وما تبناه من آليات، والفرق الوحيد هو عملية التنظير والتععيد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998.1419
2. الجاحظ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون،
3. الحاقمي، حلية المحاضرة
4. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الأبياريدار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الثانية، 1409 هـ / 1989 م
5. الرسائل، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة (1384، 1964)
6. الزهراء أبو، دروس الحجاج الفلسفي، مكتبة الخانجي، القاهرة 2003
7. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص.
8. الطاهر بن عيسى، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، دار الضياء، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1427 هـ / 2006 م
9. طه عبد الرحمان: اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998
10. عيسى بن الطاهر، أساليب الإقناع في القرآن الكريم
11. قرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء تح: محمد الحبيب، بلخوجة. دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية، 1981 م
12. كريستيان بلانتان: لغة المحاجة و اللغة الواصفة، ترجمة نصيرة الغماري، de
13. ليونيل بلنجر، عدة الأدوات الإجرائية تر: قوتال فضيلة
14. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة. طبعة 1993
15. ابن منظور، لسان العرب، مادة حجج.. دار المعارف، القاهرة، د ت.
16. نايف خرما أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد التاسع، سبتمبر، 1978
17. هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تر: محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب. الطبعة الثانية، 1999 م

18. Hoboken, new jersey. 2006.
19. Kevin hogan, james speakman: covert persuasion .published by john wiley & sons, inc.,
20. L'argumentation (voir argumentation reneé et jean sumanet. Les editeurs d'organisation paris 1990
21. Longman, dictionary of contemporary english, longman 1989.
22. Petit robert, dictionnaire de la langue français, 1er redaction, paris, 1990



